الخليج العربي ..... المجلد العشرون ..... العدد (٢) ١٩٨٨
.....مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية .....

احلال النفوذ الاجنبي بالخليج العربي
«دور الاسرة الصفوية»
سليمان الاول (صفي الثاني)
١٦٦٦ ـ ١٦٩٤
«الحلقة الخامسة»

الاستاذ علي غنام

سليمان الاول (صفي الثاني)
١٦٦٦ ـ ١٦٩٤

كان للشاه عباس الثاني ولدان: اكبرهما صفي مرزا، واصغرهما حمزة مرزا. وكان الاخير يعيش في كنف والده، بينما كان الاول حبيساً في قصور الحريم بأمر من ابيه. وعندما وافت المنية والدهما كان عمر صفي عشرين عاما، في حين كان عمر حمزة سبعة اعوام(*). ولما لم يعين الشاه خليفة له قبل وفاته قدّر كبار موظفيه وفي مقدمتهم الوزير الاول ان الفرصة قد سنحت لتنصيب الطفل حمزة، بزعم ان صفياً اضحى اعمى، الامر الذي يجعله غير مؤهل للحكم. هذا، ان لم يكن قد مات! وعندهامال الجميع نحوه مفضلينه على اخيه الاكبر صفي، بعد ان اقنعهم الوزير الاول بـ «ملاءمة وحكمة هذا الاجراء»(١٦٩). وبينما هم على وشك الشروع في وضع خطتهم موضع التنفيذ احبط مسعاهم تماماً من قبل خصي وصف بأنه مخلص شجاع تصدى لهم، ففند مزاعمهم وكشف نواياهم وعرّض بهم وحذرهم من مغبة عملهم

(*) وقيل ايضا ان عمريهما كانا عندئذ ثمانية عشر عاماً، وثمانية اعوام تباعا.
(١٦٩) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 584.

وهددهم في خطبة ليغة مؤثرة له، مؤكدا لهم فيها ان صفيا حي يبصر، و «انهم اذا لم ينقضوا قرارهم سطروه الى خنق الطفل وقتل نفسه من بعد ذلك، فيصير الملك الى صاحبه الشرع ، وينتقم صفي من كل امير خانه»[١٧٠]. وكان قبل ان ينبس بكلمة موضع شفة وازدراء المجتمعين قاطبة[١٧١]. وما ان فرغ من خطبته(*) هذه حتى غادر وترك الـ ضور في ذهول ما بعده ذهول فيما كان كل منهم ينظر الى الاخر بدهشة وهلع. وكا ، اشد ماادهشهم واثار حيرتهم، ان هذا الخصي، مبارك آغا(**)، هو المربي لحمزة نف ه والمولع به والمستفيد الاول من اعتلائه العرش فيما لو حصل ذلك، والذي في لوقت نفسه لايعلق اية آمال خاصة على تبوء صفي للعرش ولاتربطه واياه اية ابطة مهما كان نوعها[١٧٢]. ولما سقط في ايديهم، وبعد ان اطبق الصمت عليهم ، ويلاً، ارتأى الوزير الاول ان تعيين صفي سيكون اجراءاً

---

(١٧٠) شاهين مكار وس، المصدر السابق، ص ١٦٠.

(١٧١) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 584.

(*) وقد جاء فيها: « عتقد جازما بأن القرار الذي اتخذه معظم السادة النبلاء كان حصيلة دافع مباغت، لاحصي ة تفكير ملي ناضج. ولو انكم فكرتم مليا لما استطعتم ان تقترفوا عملا معارضا جدا للع الة، وسنة نبينا، كهذا الذي عزمتم عليه. ولكنكم لم تصغوا حتى الآن الا لاسباب خادعة ، يدة له. فلماذا اخفي الدافع الحقيقي؟ او ليس هو الاستحواذ على حكومة هذه المملكة؟ هذا هو سر رغبتكم في رفع طفل الى العرش! تقولون: ان اخاه الاكبر ربما هو ميت، او ضرير لى كل حال! كلا.. انه حي يبصر.. او لاتدركون انكم ستلقون المملكة في دوامة من الف ضى؟ وهل تتوقعون ان اعتبارات العدالة والقانون لدى اشراف فارس الاخرين على در ة من الضعة كما هو الحال معكم؟ وهل الشعب عموما يقبل مشاطرتكم هذه الجريمة الكب ة التي تقترفون..؟ الكل سيشمئز منكم، وحمزة نفسه سيعدكم ذات يوم اناسا لم تنصبوه ا لخدمة اغراض طموحاتكم الخاصة.. ومما يعزز ذلك انكم كنتم افاكون على ربكم ونبيك ومليككم». وتوقف لحظة، ثم اشتد هياجه وصرخ فيهم: «حمزة مرزا! حمزة مرزا! الى ا ، درك تراني قد انحطيت! هل يرغب السادة العظام لهذه الامبراطورية ان اخنق ذلك الامير البريء بهاتين اليدين اللتين ربتاه؟ ان الامر متروك لكم، او تريدون ان آتيكم بجثته في جتماعكم هذا؟ انني امتلك القوة لاقتراف هذا العمل المرعب، ويبدو انها الوسيلة الوحيدة لتي يمكنني بها ان اجبركم على الاخذ بالانصاف، وعندها ستضطرون عنوة الى حمل التاج لـ يخصه. ولكم ان تقدروا ماسيحل بكم عندما يعلم بفعلتكم الفظيعة هذه». «نقلت هـ ه الفقرات عن مالكولم ـ المصدر السابق، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ـ الذي نقلها بدوره عن شار ان).

(**) لقب اذا وضع ق ى الاسم دل على التعظيم، واذا وضع بعده دل على التصغير. وقد وضعه مالكولم قبل اس مبارك، والارجح ان الامر قد التبس عليه.

(١٧٢) المصدر : Ibid, p. 586.

صحيحاً لاشك فيه»[١٧٣]، بعد ان عدّ اجراء اقصائه ملائماً وحكيماً! وما كان امام اولئك الحضور الا ان يوافقوا على ذلك. وعليه، نصب صفي، فاتخذ اسم صفي الثاني اسماً له، وذلك في الثالث من ربيع الثاني سنة ١٠٧٧هـ[١٧٤]، الموافق للثالث من تشرين الاول سنة ١٦٦٦م. ولعل موقف مبارك آغا هذا قد أسر بعض الكتاب الى درجة اغفالهم اي دور لاخرين، في حين ذكر ان بعضاً قد تحمس لأحقية صفي وهدد بقتل حمزة ان لم يعلن الاول ملكاً[١٧٥]، ولكن دون تبيان لأولئك. والحق ان الصراع على السلطة في انظمة كهذه غالباً مايدور في نطاق ضيق كنطاق الاسرة والحاشية والمتنفذين بمعزل عن الشعب، وعماده المؤامرات والدسائس التي يمكن ان يضطلع بها شخص بمفرده او حفنة من الاشخاص.

وعلى كل حال، يبدو ان هناك اسبابا ثلاثة وراء محاولتهم اقصاء صفي: اولها، الرغبة في ان تؤول السلطة اليهم في ظل ملك طفل، لايحكم ولايملك من امره شيئا. وثانيها، الخشية من صفي الذي طال حبسه الصارم مع الحريم، فقد يصبح اسير امتعاضه لتلك المعاملة القاسية، ويصب جام غضبه على كل من نال احترام وثقة والده[١٧٦]، وشاطره امر حبسه. وثالثها، العرق، فصفي ينحدر من ام شركسية[١٧٧].

تبديل الاسم:

وبعد نحو سنتين ونصف استبدل صفي الثاني، اسمه بـ «سليمان الاول»، وذلك «لما تمت بيعته النهائية في النوروز(*) في ١٩ شوال لسنة ١٠٧٩هـ[١٧٨]»،

---

(١٧٣) المصدر : Ibid., p. 587.

(١٧٤) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي للمستشرق النمسوي ادوارد فون زمباور E.V. Zambaur، ص ٣٨٨، مطبعة جامعة فؤاد الاول، عام ١٩٥١.

(١٧٥) الدكتور احمد الخولي، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(١٧٦) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 584.

(١٧٧) الدكتور احمد الخولي، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(*) نوروز: بفتح النون وتسكين الواو وضم الراء (فارسية)، وهو اول يوم من السنة الشمسية الايرانية ومن شهر «فروردين» ومن الربيع، ويوافق ٢١ آذار من كل سنة. ويعد عيدا وطنياً لدى الايرانيين، او بالاحرى ـ عيدان: عام وخاص، ويمتد كل منهما ستة ايام، وينتهي العيد في الثالث عشر من الشهر نفسه. وتجدر الاشارة الى ان ١٩ شوال لسنة ١٠٧٩ هـ يصادف بموجب هذا التوفيق ٢١ آذار من عام ١٦٦٩، غير ان نوروز هذا يوافق ١٧ شوال بموجب توفيق اخر.

(١٧٨) المستشرق زمباور، المصدر السابق.

والاحرى انها ليست بيعة بقدر ماهي اعادة تتويج له بمناسبة اتخاذه الاسم الجديد لغرض اشهاره. وبـ ا اصبح صفي ثاني حاكم صفوي يستبدل اسمه، فقد سبقه جده سام مرزا الذي اتخذ عند توليه اسم صفي الاول احياء لذكرى والده القتيل. ولربما كان الحفيد يـ ني من تغيير اسمه الا يقرن البتة بسميه السيء الصيت، وان كان هذا التغيير قد زي الى سببين: اولهما، مرضه الشديد فور تسنمه العرش[١٧٩]، والذي عزي بدوره الى تتويجه في ساعة مشؤومة[١٨٠]! وثانيهما، وقوع احداث غير سارة تلت تنصيبه لاول، ومنها، اغارة لـ «ستنكارازان Stenka Razin» وقومه القوقاز على اقاليم ق وين[١٨١]. ولكن ويالها من صدفة غريبة لأوجه الشبه بين الجد والحفيد، فكلاهما ان حبيسا في قصور الحريم، ومنغمساً في الملذات، ومدمنا الخمرة، ومبدلا ا مه، وجاهلا بشؤون الحكم والدولة، وواقعا تحت تأثير المخصيين والنساء، ومنصرفاً عن شؤون الدولة، ومعتكفاً لسنين في قصور حريمه دون ان يخرج منها(*)، ومعتل الصحة مما عكر مزاجهما ونغص حياتهما وأودى بهما مبكرا. واخيرا،وليس آخرا، فقد امضى الاثنان معظم حياتهما بين امور ثلاثة، فالجد امضاها بين الخمرة والحريم والصيد، والحفيد امضاها بدوره بين الخمرة والحريم والنرد. وبينما عد ع د جده من اتعس العهود التي عرفتها الامة الفارسية، فقد عد سليمان الاول نفسه من اسوأ سلاطين الصفوية»[١٨٢]. ولكل هذا لم يسعفه الاسم الجديد، إذ كان قد نى نفسه الا يقرن صفي الثاني بصفي الاول عند اتخاذه سليمان اسماً جديداً له، لان سليمان لم يشفع لصفي، بل صح عليه القول: «غلب الطبع التطبع». والحق انه قد جاوز جده في بعض الامور وقصر عنه في امور اخر، ومن ذلك مثلاً:

ادمانه المسكرات:

لقد قيل انه كان كأبيه مدمناً الخمر[١٨٣]. والحق انه قد جاوز اباه، وانه اقرب

---

(١٧٩) المصدر : L. Lockhart, op. cit., p. 29.

(١٨٠) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 592.

(١٨١) المصدر : L. Lockhart, op. cit., p. 29.

(*) نسب الى محمد خ من ان الشاه سليمان امضى سنوات سبع في قصر حريمه دون ان يخرج منه.

(١٨٢) د. احمد اـ لي، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(١٨٣) كارل بروكل ن، المصدر السابق، ص ٥٠٥.

مايكون لجده، ان لم يكن قد جاوزه، في هذا المضمار، ايضاً، مما دعا «شاردان» ان يضرب به المثل عندما قال: «لايمكن تصديق قوة تحمل هذا الامير لتأثير الخمرة، فليس هناك من يجاريه سواء أكان ذلك سويسرياً ام المانياً»(١٨٤). ثم مضى قائلاً: «ويكاد ان يكون في حالة سكر دائم، ومع ذلك فهو مطلق السلطة جدا، بحيث ان كل ماينطق به حتى وهو نائم يعد اوامر واجبة التنفيذ فوراً، مهما كلف الامر»(١٨٥). وتكاد تجمع المصادر المختلفة على انغماسه في «الملذات». وكان من بينها مانسب الى محمد محسن، صاحب «زبدة التواريخ»من ان الشاه سليمان قد امضى معظم وقته في «تعاطي الخمرة وضروب اخر من الفسق»(١٨٦). وكان الى جانب ذلك يحمل نبلاءه على الافراط في تعاطي الخمرة لاغراض اربعة كما يبدو: التعرف على مايضمرون، والتسلي بهم وهم يتخبطون في سكرهم، والظهور عليهم في تحمل السكر، والرغبة الآسرة لديه في الا يتميز احد عن مسلكه هذا! وقد اوضح «بير سانسون» شيئاً من هذا بقوله: «وتنتزع الخمرة من افواههم كثيرا من الحقائق التي طالما يخفونها في اعتدالهم. ويقدم الشاه على ذلك ايضاً بغية الانشراح، اذ ان تسليته الكبرى ان يراهم يحملون خارج الوليمة كجثث الموتى»(١٨٧). ولعل ماحدث لوزيره «شيخعليخان» يوضح امرين احدهما، رغبته في حمل حاشيته واتباعه على مشاطرته عربدته لكي لايشار لاحد بالبنان على انه مستقيم او متميز عن مسلكه هذا والاخر، نزعته الهمجية. ويبدو ان هذا الوزير الذي قيل انه «كان جليل القدر مهابا كثير الفضائل شديد التقوى نهى السلطان (الشاه) عن شرب المسكر مرارا فلم ينته(١٨٨)، اثاره باستقامته وزهده! فما كان من الشاه سليمان الا ان انتقم منه. فقد روى «مالكولم» عن «شاردان»، الذي يعد اوثق من كتب عن هذه الحقبة، الروايتين التاليتين: الاولى، ذات يوم، وبينما كان الشاه سليمان وندماؤه في حفل بهيج ارسل في طلب وزيره، وابلغه بصراحة انه لم يعد يطيق حصافته ورزانته المفرطتين. ثم قال له: عليك ان تروح عن نفسك بين الفينة والفينة، والا فلا يمكننا قبول ذلك منك، فأجابه الوزير بأنه امضى حياته على هذا النحو حتى بلغ هذا المستوى من العمر والخلق. فقال الشاه: هذا صحيح جدا، ولكن سلوكك هذا،

---

(١٨٤) المصدر : L. Lockhart, op. cit., p. 31.

(١٨٥) المصدر : Ibid.

(١٨٦) المصدر : Ibid., p. 29.

(١٨٧) المصدر : Ibid.

(١٨٨) شاهين مكاريوس ، المصدر السابق، ص ١٦٠.

هو توبيخ لي، ولم اعد احتمل ذلك منك، فيجب عليك ان تشرب معنا حالاً، اما خمرا او شيئا من الافيون، وماعليك الا ان تختار اي الاثنين افضل، ولكن الجرعة يجب ان تبتلع، انه امر مليكك الذي يجب ان يطاع! وحاول الشيخ عبثا ان يثنيه عما عزم عليه، ولكن محاولاته ذهبت ادراج الرياح. وعندها ابتلع الشيخ شيئا من الافيون، وسرعان ماسقط ارضاً فاقداً وعيه[١٨٩]. وقد عقب مالكولم على ذلك بقوله: «ان انتصار الملك على فضيلة وزيره لم يعرف له حدود. وكان تعبير الملك عن سروره مفرطا حتى انه دعا كل حاشيته لرؤية «شيخعليخان» الرجل الوقور الرزين وهو ممدد على الارض». ورغبة من الشاه في «اكمال المشهد امر ان تحلق لحية الشيخ، وان يحمل الى بيته[١٩٠]. وهذا ماحصل فعلا. وفي صباح اليوم الثاني ذهبت الرسل لابلاغ الشيخ بحضور اجتماع منعقد في البلاط، فاستشاط غضباً للاهانة التي انزلت به، وامرهم ان يعودوا من حيث اتوا، ويبلغوا الملك انه قد اخزي، وانه لن يحضر، وذهبت محاولات الملك عبثا لعدله عن قراره هذا.

اما الواقعة الثانية، فقد حدثت بعد نحو اربعة اشهر من الاولى. فبينما كان الشاه سليمان في نوبة سكر امر احد موظفيه المحظيين بقطع يدي موسيقي، غير ان المكلف تجاهل الامر اعتقادا منه ان الملك اصدر امره تحت تأثير السكر، وما ان افاق الملك من نومه حتى رأى الموسيقي نفسه يعزف، فثارت ثائرته وامر، هذه المرة، ليس بقطع يدي الموسيقي وحسب، وانما بقطع يديه ورجليه معا. وفوق هذا وذاك امر بقطع ايدي وأرجل اولئك المحظيين الذين لم يمتثلوا امره. وعندما تدخل احد كبار الموظفين في البلاط لانقاذهم، لم يسفر سعيه عن شيء سوى انه شمل بالعقوبة الرهيبة نفسها! وبينما كانت العقوبات على وشك التنفيذ، خرج «شيخعليخان» من عزلته مسرعاً ورمى بنفسه عند اقدام الملك متوسلاً اليه الرحمة بهؤلاء، فما كان من الشاه الا ان قال له: انت جريء جدا، فمازلت تستخف بتوسلاتي الجدية من اجل ان تعود ثانية الى خدمتي، وها انت الان تتوسط لاخرين. فأجابه قائلاً: انني عبدك وعلى استعداد لطاعة كل اوامرك. فأجابه سليمان: حسن عفوت عنهم من اجلك، وعد الى منصبك، واعدك باحترامك واحترام نفسي اكثر مما مضى. وقيل انه اوعده بالاقلاع عن تعاطي الخمرة، الا انه حنث بوعده[١٩١].

---

(١٨٩) المصدر : Malcolm, op. cit., p. 589 - 590.

(١٩٠) المصدر : Ibid., p. 590.

(١٩١) المصدر : Ibid., p. 590 - 591.

اثار انغماسه في ملذاته

وكان من الطبيعي والحالة هذه ان ينعكس انهماكه في تعاطي المسكرات والضروب الآخر من الفسق على تصرفاته من ناحية، وعلى طبيعة الهدايا المهداة اليه من ناحية ثانية، وعلى ادارة شؤون الحكم والبلاد من ناحية ثالثة، واخيراً على صحته، اذ عانى طويلا من مرض النقرس الذي اودى بحياته. وهذا مايمكن ايجازه تباعا:

التصرفات:

اما وقد اطلعنا على المثالين السابقين، مثال ماجرى مع الوزير ومثال ماجرى مع الموسيقى وصحبه، فقد اضحى من اليسر بمكان تقدير تصرفات الشاه عموما عندما تنتابه نوبات سكره. وقد قيل انه «كان في ساعات سكره كثيرا ماينزلق الى اعمال همجية يصب جامها على افراد حاشيته»[١٩٢]. ولما كانت ساعات سكره هذه تكاد لاتنقطع، فلك ان تتصور مقدار تلك الاعمال الهمجية التي يقترفها بحق الآخرين، والتي لايمكن بأي حال من الاحوال ان يقتصر وقوعها على افراد حاشيته، وان كان نصيبهم منها وافراً، ولربما يكون بقدر غنمهم من الملك، الا ان ذلك لم يحل ابداً دون امتداد طغيانه. واذا كان قد قصر عن جده في طغيانه، فأنه قد جاوز اباه، فبينما كان الاخير لاينفس عن سورة غضبه الا في حاشيته، شرع الابن في سلسلة من الاعدامات بالجملة بين الاشراف وكبار موظفي البلاط والقادة العسكريين[١٩٣]. بل ان «لوكهارت» نسب الى محمد محسن، صاحب «زبدة التواريخ»، قوله حرفياً: «ان الشاه سليمان قد **قتل كل الامراء واركان الدولة**»[١٩٤]، وهو مالم نجد له مايؤيده في المصادر المتاحة الاخر. اما ماقيل من انه «واصل سياسة التسامح التي وضعها ابوه[١٩٥]، فيجب ان يؤخذ بتحفظ شديد، اذ درج بعض الكتاب **الاوروبيين** على اطلاق مثل هذه الاوصاف كمتسامح ومستنير ومتحرر وغيرها، بمعنى الانفتاح عليهم والتسامح معهم، ليس الا! وبما قد يتجاوز مدلول هذه الكلمات في بعض

---

(١٩٢) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص ٥٠٥.

(١٩٣) المصدر: L. Lockhart, op. cit., p. 29.

(١٩٤) المصدر: Ibid.

(١٩٥) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص ٥٠٥.

الاحايين ايضا. وا ل ماذكر من انه «كان عاهلاً مستنيراً متسامحاً رحب بسفراء الدور الاوروبية بل بسفير روسيا، الذي كانت عاداته تشمئز منها نفسه»[١٩٦] يقرب المرء مما ذهبوا اليه. والحق ان حكم الشاه سليمان قد شهد مع تقدم عهده اضطهادا دينيا وطائفيا مطردا وان كان الاخير اشد وطأة من الاول. بل وقد عد سليمان اول من اضطهد الارمن وارهقهم بالضرائب على نحو منتظم»[١٩٧]. وذكر «لوكهارت» ان سليمان لايشبه - ده، اذ لم يتخذ اجراءات ازاء ذلك الاضطهاد، مع انه لم يكن متعصباً[١٩٨]. ولكن تصرفاته وتصرفات اسلافه كانت وراء بروز قوى اسهمت في اشاعة جو من ا رقة والتعصب الديني والمذهبي، وهو ما اسهم في آخر المطاف - بجانب عامل آخر - في تقويض الدولة الصفوية.

الهدايـــا

غالبا مايتحرى لهدون قبل اهدائهم رغبات او اهتمامات او هوايات المهدى اليه او شيئاً منها، لكي تفعل الهدية فعلها وتحقق ماتوخي منها، بانزال صاحبها منزلة طيبة من نفس المه ى اليه، وخصوصاً اولئك الذين يمتهنونها بوصفها «فناً» قائما بذاته لبلوغ مآربهم لدى اصحاب الجاه والسلطان. ولما كان من اليسر بمكان معرفة ميول الشاه سليما وشهواته، فقد اخذ اصحاب المصالح «يتقربون منه باهداء الخمور والمسكرات [١٩٩]. بل ان الشاه سليمان قد تجاوز انتظار تلقي مثل هذه الهدايا من الآخرين، وس ى بنفسه من اجل الحصول عليها في بعض الاحايين. ولعل مارواه وكيل شرك الهند الشرقية الانكليزية بأصفهان يلقي شيئاً من الضوء على ذلك، اذ جاء في رير له: «مازال الملك مستمراً في تعاطيه المفرط للخمر، الامر الذي يجعلني اخش عند لقائي القادم به من انه سيطلب مني الاضطلاع بدور الشخص الدمث المحبب، ومن المحتمل جدا ان يكون تواقا الى تجربة نبيذنا الأوروبي الذي ر: يكون مقبولا لديه، ان كان طيبا. ولذلك طلب مني تزويده بثلاثة صناديق من اجود الانواع قاطبة كهدية له. على ان يكون احدها، من نوع «الساك Sack»، والاخر، من «الكلاريت (خمرة بوردو الفرنسية) Claret»،

---

(١٩٦) دائرة المعار ، الاسلامية، المجلد الرابع عشر، ص ٢٣٥.

(١٩٧) المصدر : N.G. Curzon. op. cit., p. 52.

(١٩٨) المصدر : L. Lockhart, op. cit., p. 31 - 32.

(١٩٩) شاهين مك يوس، المصدر السابق، ص ١٦٠.

والثالث، من «الرنش (خمرة الراين) Rhenish[٢٠٠]. وقد عقب «مالكولم» على هذه الواقعة بقوله: «كان التجار الاوربيون يعتمدون على هدايا كهذه لضمان عطف ملك كسليمان»[٢٠١].

ادارة شؤون الحكم والبلاد:

ولما كان الشاه سليمان الاول في شغل شاغل من امر «ملذاته» كان لابد ان يكون ذلك على حساب ادارة شؤون الدولة، فكان نصيبها الاهمال حتى اصبحت لقمة سائغة لدى الخصيان والطامعين. ولعل ابرز مايلاحظ في هذا المضمار: سطوة الخصيان، وتخاذل الشاه ازاء الاعتداءات الخارجية. وهو بهذا يكون قد جاوز جده مرة اخرى.

سطوة الخصيان:

لقد تعاظمت سلطة الخصيان في عهده حتى قيل: «صحيح ان لدى الشاه «اعتماداً للدولة»(*) ووزراء آخرين، ولكنهم كانوا مجرد إمعات[٢٠٢]» نظرا لقبضة الخصيان الخانقة على السلطة، مما دعا المبشر الفرنسي «بير سانسون Pere Sanson»(**)، وهو الذي سنحت له فرص ممتازة لمراقبة شؤون الدولة في بلاط سليمان الاول، دعاه لان يقول: «عند مناقشة شؤون الدولة في المجلس الملكي لايتخذ اي قرار، وانما تعالج فيه الوسائل فقط ويبقى امر تطبيقها رهنا بمجلس خاص مكون

---

(٢٠٠) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 591.

(٢٠١) Ibid.

(*) اعتماد الدولة: لقب منح لاول وزير فارسي في عهد الصفويين منذ اواخر حكم «طهماسب». وهذا مادعا الكتاب الغربيين ان يطلقوا عليه الوزير الاول تارة، ورئيس الوزراء تارة اخرى. ويسمى ايضا وزيرا اعظم، ونوابا (بفتح النون والواو)، او ايران مداري، ووزير راست (اي وزير اليمين لانه يقف ويركب عن يمين الملك). وكان له سلطان عظيم بوصفه اكبر رئيس اداري في الدولة. وكان يتقاضى ايرادا قدر في سنة ١٦٥٠ بمبلغ يتراوح بين تسعمائة والف تومان.

(٢٠٢) المصدر : L. Lockhart op. cit., p. 29.

(**) امضى سانسون نحو ثمان سنوات (١٦٨٤ - ١٦٩٢) في فارس.

من اهم الخصيان. وفي هذا المجلس الخاص تتخذ اهم القرارات المتعلقة بشؤون الدولة، ولايعلم رئيس الوزراء وبقية الاسياد بما يجري فيه». ثم مضى قائلاً: «ان مربي الامراء خصي، ومعلميهم من الخصيان ايضاً، كما ان شؤون المملكة بيد واحد منهم، وهذا بدوره يختار من بين الاطفال من سيخلف الملك، وهو الذي يوليه العرش ايضاً، ويحمل الاخرين على الاعتراف به بعد ممات سلفه. واخيرا، فأن هؤلاء الخصيان هم الذين يتولون تدبير كافة الامور في دار الملك»[٢٠٣]. وكان الى جانب ذلك خاضعاً لتأثير النساء حتى قيل انه وقع تماما تحت تأثير الخصيان والنساء[٢٠٤].

وبذا يكون سليمان الاول قد جاوز في خضوعه لسلطان الخصيان والنساء كل من سبقه من افراد اسرته. فضلاً عن انه يذكرنا بما كان جاريا في العصور الاخمينية المتأخرة، وماقاله «رولينسون Canon George Rawlinson» بصدد سلطان الخصيان انذاك.[*].

الجيران والاعتداءات الخارجية:

كان من حسن طالع الشاه سليمان ان جيرانه كانوا في شغل شاغل عنه، فعلى صعيد الدولة العثمانية، افاد الشاه، شأنه شأن ابيه، من السلام الذي ارسيت قواعده بين الدولتين في عهد جده. ولكن الاهم من ذلك ان الدولة العثمانية كانت طوال عهده منهمكة تماماً في صراع داخل اوربا، فكانت حروبها المريرة مع بولندا وروسيا والنمسا[**] والبندقية، ومن ثم مع ما اقامته هذه الدول من «عصبة مقدسة

(٢٠٣) المصدر : L. Lockhart, op. cit., p. 29 - 30.

(٢٠٤) المصدر : P. Sykes, op. cit., p. 213.

(*) ذكر رولينسون، في مؤلفه «الممالك العظمى الخمس للعالم الشرقي القديم The Five Great Monarcheies of the Ancient World, 4 Vols»، ماكان للخصيان من «سلطة سياسية واسعة، ويبدو انهم شغلوا حينئذ كل المناصب الرئيسية في الدولة. وكانوا مستشاري الملك في القصر، وقادته في الميدان. كما انهم كانوا يشرفون على تعليم الامراء الشبان، ووجدوا انه من اليسر ان يجعلوا منهم ادوات بأيديهم. اما الدسائس والمؤامرات والاعدامات والاغتيالات التي شوهت الجزء الاخير من تاريخ فارس، فيمكن ان تعزى اساسا الى مكائدهم وطموحاتهم». وتجدر الاشارة الى ان رولينسون نفسه قد خلص الى نتيجة مفادها انه «اذا ماتفحصنا التاريخ العام لفارس والهند والصين، فسنجد ان سلطان الخصيان قد سجل على نحو مطرد انحطاط وسقوط كل سلالة حاكمة». (راجع: لوكهارت، المصدر السابق، ص ٢٦).

(**) وفي سياق هذا الصراع شهدت فيينا حصارها الثاني (الحصار الاول كان في عام ١٥٢٩) الذي دام نحو شهرين (منذ ١٥ تموز حتى ١٢ ايلول من عام ١٦٨٣).

Holly League» فيما بينها ضد العدو المشترك ايضا(*). وكانت الهزائم المريرة التي منيت بها الدولة العثمانية جراء تلك الحروب قد اغرت الدول الاوروبية بها، وفتحت بدورها عهدا من البلبلة والقلاقل داخل الدولة العثمانية نفسها حتى ان الخمسة الذين تعاقبوا على منصب الصدر الاعظم، فيما بين عامي ١٦٧٦ ـ ١٦٨٨، قد لقوا حتفهم جميعا سواء أكان ذلك بالاعدام ام بالقتل(**). اما الستة الذين اعقبوهم في هذا المنصب الرفيع، بين عامي ١٦٨٨ ـ ١٦٩٤، فقد عزلوا جميعا عدا واحد منهم قتل في معركة «زنته Zenta»، وكادت تختفي تماماً ظاهرة شغور هذا المنصب عن طريق الوفاة، في حين كانت تحصل على نحو اكثر فيما مضى. فضلاً عن ان وتيرة العزل او بالاحرى التغيير لشاغلي هذا المنصب قد اخذت في الارتفاع المطرد، فعلى الرغم من ان محمد الرابع كان الثاني من حيث طول عهده (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧)، فأنه قد استوزر لهذا المنصب نحو ضعف من استوزرهم صاحب اطول عهد في الدولة العثمانية، سليمان الاول (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)(***). والحق ان تلك الهزائم قد فعلت الافاعيل في الدولة العثمانية حتى ان واحدة منها قد طوحت برأس الصدر الاعظم، وختمت العهد المديد للسلطان محمد الرابع الذي خلع واستبدل بأحد اخويه «الحبيسين» في قصره، الا وهي الهزيمة القاصمة التي حلت بالجيش العثماني عند مهاج (موهاكس Mohacz) في الثاني عشر من آب سنة ١٦٨٧، اي في الموضع نفسه الذي احرز فيه سليمان الاول نصرا كبيرا في حربه ضد المجر عندما قتل ملكها لويس وقتل معه صفوة رجاله في الثامن والعشرين من آب سنة ١٥٢٦(٢٠٥). فضلا عن ماتلاها من هزائم أخر افضت جميعها الى اكراه الباب العالي في اول مرة له على قبول مبدأ التفاوض مع الائتلاف الاوروبي، وتسليمه بالهزيمة على اساس مبدأ «الاحتفاظ بالممتلكات Uti

---

(*) قام هذا الحلف في الخامس من آذار سنة ١٦٨٤ وبمبادرة من البابا، وضم كلا من النمسا وبولندا في بادىء الامر، ثم انضمت اليهما البندقية، ولحقت بها روسيا سنة ١٦٨٧.

(**) حيث اعدم كل من الصدر الاعظم قره مصطفى مرزونلي، وقره ابراهيم، وسليمان باشا، وتشانجي اسماعيل، في حين قتل الصدر الاعظم آيازه سياوش باشا على ايدي الانكشاريين المتمردين وسبيت زوجاته، بعد ان قتل الانكشاريون انفسهم قوادهم ايضا.

(***) وبينما بلغ مجموع من شغل منصب الصدر الاعظم على مدى ستة قرون وربع القرن (١٢٩٩ ـ ١٩٢٤) في دولة بني عثمان مئتان وتسعة (٢٠٩)، فأن عدد من شغلوه حتى منتصف عهدها لم يكن ليتجاوز الخمس الا بقليل (٢١,٥٪ تقريبا)، في حين استحوذ النصف الثاني منه على نحو اربعة اخماسهم.

(٢٠٥) كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٥١.

Possidetis»، اي احتفاظ الدول الاوروبية بما استولت عليه، فكانت اتفاقية كارلوتز Carlowitz في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٦٩٩. وفيها اكرهت الدولة العثمانية على التنازل عن اراض واسعة للنمسا وبولندا والبندقية، ومن ثم لروسيا. ومنذ ذلك الوقت لم تعد الدول الاوروبية تخشى الدولة العثمانية التي افزعتها واقضت مضاجعها لاكثر من ثلاثة قرون [٢٠٦]. بل وكان هذا الصلح ايذانا ببدء مرحلة ارتداد الدولة العثمانية عن اوروبا، ذلك الارتداد الذي مضى في سبيله مع تعاقب الهزائم والمعاهدات غير المواتية لها. ولم تنفك الدول الاوروبية عن محاولاتها في اذكاء الخصومة بين الدولة العثمانية وفارس واغراء الاخيرة باهتبال الفرصة، فـ«عندما قدم سفراء تلك الدول الاوروبية الى اصفهان لحث الشاه سليمان على التحالف مع بلدانهم وشن حرب على تركيا، حاول اولئك السفراء لفت انتباه الشاه الى ان هناك فرصة ممتازة لاستعادة بغداد والمدن والاراضي الفارسية التي فقدت في مسعى منهم لاقناعه بالموافقة على الانخراط في حرب ضد الاتراك»[٢٠٧]. غير ان الشاه لم يستجب لدعواهم وقال: «انه يفضل الحفاظ على المعاهدة مع السلطان التركي والعيش في سلام معه[٢٠٨]». ولما اوضحت له، ذات مرة، مخاطر احلال الصلح بين الدول المسيحية وتركيا وكيف ان الاخيرة ستغتنم الفرصة وتهاجم افضل اقاليمه. ان لم يكن على اهبة الاستعداد لصدها، اجابهم دون اكتراث بأنه لا يهتم بذلك ونقل عنه قوله: «اعطوهم اياها واتركوا لي اصفهان[٢٠٩]! ولاشك في ان الشاه لم يقصد من ذلك سوى صد تلك المحاولات التي لم يكن اهلا لها وعليه، لم تنشب حرب بين البلدين تعكر حالة السلام التي ورثت عن جده، وان ورد في واحد من المصادر المتاحة ان «سليمان خان الاردلاني استقل في كردستان بمساعدة الدولة العثمانية، فتوجه اليه رستم القائد العام للشاه وقتله»[٢١٠]. وهذا لا ينتقص من الامر شيئا حتى ولو صح، لانه لايعدو في جوهره كونه حدثا داخلياً.

(٢٠٦) Lord Kinross, The Ottoman Centuries, p. 357, Morrow Qui Paper Backs New York, 1977.

(٢٠٧) المصدر: Lockhart, op. cit., p. 30.

(٢٠٨) المصدر: Ibid.

(٢٠٩) المصدر: Ibid.

(٢١٠) عبدالعزيز آل صاحب جواهر الكلام، آثار الشيعة الامامية، جزء (٢٠)، ص ٨٨، الطبعة الاولى، مطبعة مجلس الشورى في طهران بطلب من وزارة المعارف الايرانية، سنة ١٣٤٢ هـ.

اما المغول، فقد كانوا في شغل شاغل عن فارس ايضاً، اذ تزامن عهد سليمان مع العهد المديد لـ «اور نكزيب ١٦٥٨ ـ ١٧٠٧ Aurangzeb(*)» الابن الثالث لشاهجان من زوجته «ارجمند بانو بيكم ممتاز محل»(**)، والذي يمكن تلخيص حياته المليئة بأنه ولد في معسكر، وامضى معظم حياته في معسكر، ومات في معسكر(٢١١). ولعل هذا يفسر انهماكه في حروب لم تنقطع، فمن حرب الوراثة (١٦٥٧ ـ ١٦٥٩) مع اشقائه الثلاثة(***) الى حروب التوسع واخماد الثورات والانتفاضات، والى

(*) هو ابو المظفر محمد محيي الدين اورنكزيب عالمكير، ولد في سنة ١٦١٨، وتلقب بألقاب منها: «المجير»، و «القمر المنير»، و «قاهر العالم»، ومالقب «اورنكزيب» الذي يعني «زينة العرش»، الا واحد منها!.

(**) وهي بنت آصاف خان ابن التاجر الفارسي مرزا غياث، واخي نورجهان ارملة المغامر الفارسي الذي قتل قتلة اكتنفتها الريبة، وزوجة الامبراطور جهانكير (١٦٠٥ ـ ١٦٢٧) فيما بعد. وقد عني آصاف بتنشئة ابنته «ارجمند»، فجمعت بذلك بين امرين: حسن التربية، والجمال الفاتن. وبنى عليها الامير شاهجهان سنة ١٦١٢، ولازمته «في كل المحن التي مرت به»، وتوفيت اثر وضعها الرابع عشر سنة ١٦٣١، فأراد الامبراطور شاهجهان (١٦٢٧ ـ ١٦٥٨) المتيم بها ان يخلد ممتاز محل او سيدة التاج، وكان ذلك الضريح العجيب الذي يعد من روائع الفن المعماري العالمي، والذي استغرق بناؤه وتوابعه اثنين وعشرين عاما (١٦٣٢ ـ ١٦٥٣)،
وعمل في تشييده اكثر من عشرين الف عامل يوميا ودون انقطاع، وكلف بناؤه (١٧,٩) مليون روبية او اربعين (٤٠) مليون روبية حسب رواية اخرى. وتجدر الاشارة الى ان شاهجهان كان مغرما بمظاهر الابهة، فهو الذي امر بصنع عرش الطاووس ايضا، والذي «رصع بأكداس من الجواهر النادرة» والذهب الخالص واللالىء والزوبيات حتى كلف اكثر من ستة ملايين جنيه استرليني وعد «واحدا من افخم العروش على الاطلاق». وقد غنمه نادر شاه، سنة ١٧٣٩، فيما غنم من اموال ومجوهرات وغيرها من الاشياء الثمينة التي بلغت قيمتها الاجمالية، في الاقل، سبعمئة (٧٠٠) مليون روبية.

(٢١١) دائرة المعارف الاسلامية، الجزء الثالث، ص ١٣٣.

(***) عهد شاهجهان اثر مرضه بولاية العهد الى اكبر ابنائه واكثرهم قربا منه، داراشكوه، فنشب الصراع بين الاشقاء الاربعة، لأن كل واحد منهم يرى نفسه احق بالملك من الاخرين. وعندها تحالف اورنكزيب مع اصغرهم مراد بخش وما ان انتصرا على اخيهما دارا الذي فر بعد هزيمته حتى اسرا والداهما شاهجهان الذي ظل قيد حبسه منذ ذلك الحين (١٦٥٨) حتى وفاته سنة ١٦٦٦. ثم غدر اورنكـزيب بأخيه وحليفه مراد فور ذلك، فأعتقله في الخامس من تموز سنة ١٦٥٨، ثم قتله (سنة ١٦٦١)، ونادى بنفسه امبراطورا في العام نفسه (١٦٥٨). ثم مضى في مطاردة دارا شكوه وشاه شجاع، فظفر بالاول واعدمه في العاشر من كانون الأول سنة ١٦٥٩. اما الثاني، فقد تكفل قواده بمطاردته حتى اختفى اثره وانقطع ذكره.

صراعه مع ابنائه(*). وعلى الرغم من ان الامبراطورية المغولية بلغت في عهده من الاتساع مالم تبلغه قبل او بعد، فأنه بتعصبه الديني(**) والطائفي من جهة، ونزعته الحربية من جهة اخرى قد اسهم في تقويض الامبراطورية المغولية. والحق ان «اورنكزيب». على ماعرف عنه من بعض السجايا الشخصية الحميدة، لم يكن سوى رد متطرف على ممارسات متطرفة في شبه قارة حافلة بالتنوع والتباين والصعاب والطامحين من الداخل والطامعين من الخارج، فضلا عن انها مجبولة عموماً على روح المسالمة والوداعة التي تتعارض مع روح التعصب والعنف. ولذا تاه «اورنكزيب» في التيه الهندي حتى بلغت به الخشية على ملكه الى حد انه لم يتمكن من اداء فريضة الحج التي منى بها نفسه طويلاً، وحتى ان ابناءه كانوا ينتظرون وفاته ليعيدوا فيما بينهم سيرته مع اشقائه، فأفاد الشاه سليمان من انشغاله هذا، لان اورنكزيب الذي لم يستجب والده لطلبه بالسير على رأس المحاولة الثالثة لاسترداد قندهار من فارس(٢١٢)، فضل طيّ هذه القضية عندما انتهى الامر اليه، وانغمس في ما انغمس فيه.

اما جيرانه الأزبك، فعلى الرغم من انهم قد فارقوا وحدتهم وذروة قوتهم منذ آواخر القرن السادس عشر، فأنهم عاودوا، في عهده، غزواتهم السنوية على خراسان، ولم يحرك الشاه ساكناً ازاء غاراتهم هذه. بينما عانى سكان شواطىء بحر قزوين كثيرا من غارات السلب والنهب على ايدي التتار(٢١٣). على ان اهم و «اول حرب حدثت في ايامه حرب اميره كلبعلي خان شاملو مع آدينه سلطان رئيس قبيلة تركمان صاين وكان قد جمع اصحابه وهم زهاء ستين الفاً واستولى على استر آباد ودمغان وسمنان فغلب عليه كلبعلي وفرق جمعه بعد حروب ومناوشات عديدة»(٢١٤)، وبعد ان كان التركمان قد «اعملوا السلب والنهب في هذه

(*) وتجدر الاشارة الى ان «اكبر» رابع ابنائه قد خرج عليه وتحالف مع الامراء الراجبوتيين، ولما فشل في مسعاه (عام ١٦٨١) لاذ بفارس، واقام فيها حتى وافاه الاجل، وانزل اورنكزيب نفسه عقوبة الحبس بأبنته الشاعرة الموهوبة «زيب النساء» لعطفها على اخيها اكبر وبقيت حبيسة حتى وافتها المنية. كما والقى بأبنه الاكبر سلطان في السجن حتى فارق الحياة، وسجن ابنه «معظم» سنوات ثمان، وفعل الامر نفسه مع ابنه المحبب «كام بخش».

(**) اعاد فرض الجزية على الهنود التي الغاها جده اكبر.

(٢١٢) الدكتور احمد محمود الساداتي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٩.

(٢١٣) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 587.

(٢١٤) عبدالعزيز آل صاحب جواهر الكلام، المصدر السابق، ص ٨٨،

الانحاء».[٢١٥] كما قام الهولنديون بأعمال عدائية ضد فارس ومنها احتلال جزيرة قشم. والحق ان الشاه سليمان «لم يحرك ساكنا عندما علم ان الهولنديين استولوا على قشم، ولاعندما سمع اجتياح غارات الازبك لاقليم خراسان، ولا عندما هدد اسطول اليعاربة الذين حرروا بلادهم من البرتغاليين ـ ميناء بندر عباس نفسه. اذ فضل حياة الحريم على مسؤولياته كحاكم اعلى للبلاد[٢١٦]. بينما عزا «مالكولم» تصرفات الشاه الى الجبن واستهجن موقفَ المنافقين عندما قال: «انها لم تتلق بالتأييد من قبل المتملقين من بلاده وحسب، ولكنها اطريت من قبل رحالة اوروبي عليم ومحترم كان في فارس حينما كان هذا الامير (الشاه) يتربع على العرش، اذ عزا تصرف سليمان الى الحكمة وحسن السياسة»[٢١٧]. وعلى كل حال، فقد لانجد التفسير الشافي في هذا او ذاك ـ الجبن او تفضيل حياة الحريم ـ وانما نجده في مجمل سيرته التي تفسرِ تصرفاته هذه، فسليمان شاه غر فاسق خامل عاجز مشغول بنفسه و «متعه»، بل ولم نستبعد انه عرف او عُرف بحده، فوقف عنده؟ ولولا انه ولى منصب اعتماد الدولة (١٦٦٨ ـ ١٦٨٩) الى «شيخعليخان» لما كان من اسوأ سلاطين الصفوية وحسب، بل ولربما كان عهده اسوأ عهد عرفته دولتهم الى ذلك الحين ايضاً. والعجب ان شاها كهذا وجد من يقول في سيرته هذه انه «كان عاهلا مستنيرا متسامحاً»! او انه «كان حازما بصيراً بالسياسة وتدبير الملك»! ولاشك في ان مثل هذه الاحكام هي التي اوحت لاحدهم ان يقول مأثورته عندما اراد ابنه ان يقرأ له، فقال الاب: «اقرأ لي كل شيء الا التاريخ، فأنه باطل».

في العدد القادم:
الاوروبيون وامتيازاتهم في عهد سليمان

---

(٢١٥) الدكتور احمد الخولي، المصدر السابق، ص ٢٢٠.
(٢١٦) الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، الجزء الاول، ص ٧٤، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١.
(٢١٧) المصدر : J. Malcolm, op. cit., p. 587 - 588.